بين مجتمع النظام ومجتمع الثورة

الفجوة النفسية وسُبُل الاندماج المجتمعي

رؤية: د. سليمان السلامة الحمد

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنهض الدول من ركام الحروب غالباً بفعل انتصار أحد أطراف النزاع أو نتيجة تسوية سياسية بين المتحاربين. وفي كلا الحالين، ينصبُّ الاهتمام بعد توقف القتال على الجوانب الأمنية والاقتصادية، من أجل تحسين حياة المواطن وتوفير الخدمات الأساسية. إلا أن العنصر.الأهم في بناء أي دولة هو الإنسان؛ فهو الغاية والوسيلة، وكل ما يُبذل من جهود في الإعمار إنما يستهدف في حقيقته تحسين حياته وكرامته.

لكن غالباً ما يتم تجاهل معالجة الآثار النفسية العميقة التي خلّفتها الحرب، لا على الأفراد فحسب، بل على البُنى الاجتماعية الكبرى التي انقسمت وتمايزت خلال سنوات النزاع. في الحالة السورية، هناك انقسام حاد نشأ بين مجتمع الثورة ومجتمع النظام، وهو انقسام ليس سياسيًّا فقط، بل نفسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا كذلك.

ويهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على هذه الفجوة، متتبعاً أسبابها وجذورها النفسية، مستعينًا بالنماذج النبوية والتجارب التاريخية والدولية، من أجل اقتراح حلول واقعية قابلة للتطبيق. وقد قُسّم البحث إلى أربعة مطالب:

- **المطلب الأول: قراءة في دمج النبي ﷺ لمجتمعي مكة والمدينة.**
- **المطلب الثاني: أسباب الفوارق بين أبناء الثورة وحاضنة النظام.**
- **المطلب الثالث: حلول نفسية واجتماعية لجسر الهوة بين المجتمعين.**
- **المطلب الرابع: التجارب الدولية في رأب الانقسام المجتمعي.**

المطلب الأول: قراءة في دمج النبي ﷺ لمجتمعي مكة والمدينة

هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ومعه جمع من أهل مكة فارقوا ديارهم وأهلهم وأموالهم وخاصموا لِدَاتِهم وإخوانهم من أجل قضية الإيمان التي آمنوا بها، ووهبوا حياتهم لنصرتها والدفاع عنها، ونزلوا في هجرتهم عند إخوانٍ لهم يؤمنون بنفس الدين، ويقودهم نفس النبي ويصدقون بنفس الكتاب، ويرسمون طموحًا لهم من أجل مستقبل لهذه الأمة التي يبذلون كل جهدهم لترى النور، ويساهمون في إنارة دروب المحيطين بهم وأبناءهم الذين سيلحقونهم.

ومع هذه القواسم المشتركة المهمة، التي تسهِّل عملية الدمج بين المهاجرين ومن ناصرهم من أهل المدينة، لا يمكن أن يحول بين الواقع الطبيعي لاختلافهم؛ وذلك لأسباب عدة لعل من أبرزها:

1. اختلاف بيئة قريش وطبيعتها الجغرافية الجبلية الحارة الجافة، عن بيئة المدينة الرقيقة كثيرة المياه والأشجار ومناخها المعتدل وما لذلك من تأثير على النفس البشرية وما لهاتين الطبيعتين من تأثير على السلوك والطباع.
2. واقع المكيين الذين اكتسبوا من سُكْنَاهم في مكة العزة، والأنفة والتعالي على بقية العرب المجاورين؛ إذ أنهم سكان بيت الله الحرام وسدنته، وأن الناس تحج إليهم ولا يحجون هم إلى أحد، وأن الله تعالى حماهم بالطير الأبابيل، أوجد ذلك تعالي وترفع على من جانسهم من العرب المجاورين لهم، واكتسبوا من جوار بيت الله الشرف الرفيع الذي ترفعوا به عن غيرهم.
3. سعة أفق سكان المدينة وتنوع معارفهم لوجود اليهود في جوارهم، وهم حلفاؤهم في الحرب وشركاؤهم في التجارة وجلساؤهم في السلم، مع اطلاعهم الدائم على ثقافتهم وهم أمة أمية.

هذه الأسباب وغيرها جعلت كثيرًا من الفوارق بين المجتمعين، وذلك من خلال نظرتهم إلى المرأة، وتعاملهم مع الأبناء، وفي شعرهم وأدبهم، وفي طعامهم، وكثير من التعاملات الحياتية اليومية، بحكم تسرب كثير من المفاهيم اليهودية إلى سكان المدينة، مع رقة الطباع عند أهل المدينة وقسوتها عند أهل مكة، وشدة الحمية عند أهل المدينة بسبب الصراع المستمر بينهم وبين بعض، وبينهم وبين اليهود، ودخولهم في الإسلام واعتناقهم لمبادئ الإيمان لا

ينقل سلوكهم وطباعهم بقرار لأن السلوك والطبائع البشرية لا تتغير بقرار ولا بتغير قناعة، وإنما بمداومة وممارسة حتى يصبح عادة أو مهارة.

وأعتقد أن النبي ﷺ كان مدركًا لكل هذه الأمور، وكان يشغل باله في طريق هجرته هم الجمع بين الطرفين من أجل العمل على تأليف القلوب، وجعلهم جسدًا واحدًا، ونزع فتيل التنازع بين المجتمعين، ولو تتبعنا سيرة النبي ﷺ، وعملنا على إبراز هذا الأمر لوجدناه واضحًا بارزًا في طريقة تعامله، فحينما دخل المدينة أول دخول له واستقبلته الفتيات من الأنصار وهن ينشدن:

"نحن جوار من بني النجار... يا حبذا محمد من جاري"

نزل إليهن مكلماً لهن قائلاً: أتحببنني؟ قلن: نعم. قال: الله يشهد أني أحبكن.

كم تسللت هذه العبارة إلى قلوب الأنصار، وهي وعبارات كثيرة تعبر عن المشاعر الصادقة كان يستعملها مع رقاق القلوب من أهل المدينة.

ومن أجل تحقيق الدمج والتفاعل بين الطرفين، بناء المسجد الذي ألح النبي ﷺ على ضرورة ولزوم حضور الجميع فيه، ليكون المسجد رحماً لهم، يؤسس الأخوة بينهم، كما كان شوق أهل المدينة لإخوانهم المهاجرين شوقًا لم يسجل التاريخ مثله، فقد ثبت أنه ما نزل مهاجر على أنصاري إلا بقرعة، من شدة تزاحمهم عليهم، وحرصهم على إكرامهم، وهذا الشوق كان كفيلًا ليذيب الفوارق.

مع علاج النبي ﷺ المستمر لكل مشكلة تطل برأسها بينهم، ومن ذلك: خلافهم عند عودتهم من غزوة تبوك حين تنادوا مناصرين لبعضهم: يا معشر.المهاجرين ويا معشر.الأنصاري، تنصره بعضهم على البعض.

مع الأخوة التي أسس لها بين المهاجرين والأنصار حيث كان التقارب بينهم أكثر من الأخوة في النسب لدرجة أنهم يتوارثون فيما بينهم إلى زمن في المدينة المنورة، ويكونون قريبين من بعضهم ليتشكل الجسد الواحد وتقوى أواصر الأخوة، وروابط العلاقة فيكونون حقيقة كالأجساد الواحد.

معالجة النبي ﷺ لاختلاف الطباع والرواسب النفسية بين مجتمعي المدينة

من خلال التأمل في سيرة النبي ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة، نلاحظ أنه سلك مسارات متعددة تهدف إلى **معالجة الرواسب النفسية والطباع الاجتماعية المختلفة** بين الأوس والخزرج من جهة، وبين المهاجرين والأنصار من جهة أخرى، رغم ما يجمعهم من رابط الإيمان. وقد كانت هذه المسارات تمهيدًا نفسيًا واجتماعيًا لدمج هذه المكونات المختلفة في نسيج مجتمعي واحد، ومن أهم تلك المسارات:

المسار الأول: البناء الروحي للعلاقات وربطها بالإيمان

لقد قام النبي ﷺ بتحويل بوصلة العلاقات من مرجعيات قبلية أو نفعية إلى **مرجعية إيمانية** ترتكز على محبة الله والأخوة في الدين، وهو ما يظهر بجلاء في قوله تعالى:

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)[1].

كما أكّد النبي ﷺ على حرمة الهجر والانقطاع بين المسلمين ولو كان هناك خلاف، فقال:

(لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ، يَلْتَقِيانِ؛ فَيَصُدُّ هذا، ويَصُدُّ هذا، وخَيْرُهُما الذي يَبْدَأُ بالسَّلام)[2].

وأشار أيضًا إلى القيمة الإيمانية للتواصل الأخوي بقوله:

(إذا عادَ المسلمُ أخاه أو زاره قال اللهُ عزَّ وجَلَّ :طِبْتَ وطابَ مَمْشاكَ، وتَبَوَّأتَ في الجنَّةِ مَنزِلًا)[3].

هذه التوجيهات النبوية تشير بوضوح إلى أن النبي ﷺ **أعاد تشكيل البنية النفسية للعلاقات** عبر ترسيخ المحبة التي تنبع من الإيمان، لا من العصبية أو المصلحة، وهو ما شكّل قاعدة متينة لبناء مجتمع متماسك.

---

[1]- سورة الزخرف آية 67.
[2]- أخرجه البخاري (6237)، ومسلم (2560).
[3]- تخريج المسند لشعيب الصفحة أو الرقم:8536 .

المسار الثاني: تحديد الحقوق المجتمعية وتفعيلها عمليًا

اهتم النبي ﷺ بإرساء ميثاق عملي للحقوق بين المسلمين، فكانت الأحاديث النبوية بمثابة **دستور اجتماعي** يرشد إلى سلوكيات تدعم التماسك، ومن ذلك قوله ﷺ:

(حَقُّ المُسْلِمِ علَى المُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وعِيَادَةُ المَرِيضِ، واتِّبَاعُ الجَنَائِزِ، وإجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وتَشْمِيتُ العَاطِسِ) [1].

هذه الأوامر ليست شعائر اجتماعية فحسب، بل هي **جسور تواصل عملية** تحمي المجتمع من التفكك، وتُنشئ حالة من التكافل العاطفي والاجتماعي.

المسار الثالث: حماية الكرامة والنفس من الانتهاك

حرص النبي ﷺ على **حماية البناء الاجتماعي من الهدم النفسي والمعنوي**، فحرّم كل ما من شأنه أن يهتك ستر الأخوّة، من غيبة ونميمة وظن سوء، فقال:

"إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا " [2].

كما حرّم الدم والعرض والمال، فكانت هذه المبادئ **أسسًا لردع الصراعات والانقسامات**، وترسيخ الاحترام المتبادل بين الأفراد والجماعات.

[1]- صحيح البخاري، الرقم:1240.
[2]- رواه مسلم.

المطلب الثاني: أسباب الفوارق بين أبناء الثورة وحاضنة النظام

اليوم في بلدنا الحبيب سوريا هناك أيضاً صورة مقاربة لما تحدثنا عنه في المطلب الأول، فهناك فوارق كبيرة بين مجتمعين مختلفين متباينين في الرؤى والأهداف، والنظرة لكثير من المفاهيم، وذلك بسبب البيئة التي عاشها كل فرد. وإن لم تكن بيئة طبيعية إلا أنها بيئة مؤثرة، وله تأثير مهم في بناء الشخصية وبلورة الأهداف لدى الإنسان. لذلك، يلزم العمل على إذابة هذه الفوارق والتخلص من السيء منها، والعمل على دمج المجتمعين معاً من أجل بناء الدولة وانطلاقها، وتحقيق عيش مشترك وسلم أهلي، والاستفادة من قدرات الأفراد والمؤسسات والمحاضن التربوية.

قد يستغرب القارئ من هذه الفوارق أو يعتبرها أقل أهمية، ويفترض أن دمج المجتمعين أمر بسيط وطبيعي يحدث بعد سقوط النظام، ويكفي زوال الطاغية وحده لإذابة الفوارق، أو أن الاحتكاك اليومي والعلاقات الأسرية والمجتمعية الطبيعية ستكفل ذلك. لكن الواقع أبعد من ذلك بكثير.

سأعمل في هذا البحث على تسليط الضوء على منشأ الفوارق وأسبابها، وطريقة العمل على علاجها، لكي يتضح خطرها وأهمية القضاء عليها.

أولاً: أهم أسباب نشوء الفوارق المجتمعية

- **التعليم (المدارس):** المدرسة هي مركز تكوين الشخصية بعد الأسرة، وربما لها أهمية أكبر. عمل النظام البائد على تعزيز وجوده وسلطته داخل المدارس، وبذل جهداً كبيراً في غسل أدمغة الطلاب من خلال التحكم بتوجه المعلمين والطلاب عبر تنظيمات مثل (طلائع البعث وشبيبة الثورة)، واستخدام كتب مخصصة مثل كتاب التربية الوطنية الذي حوى سموم حزب البعث وقائده البائد.

بدون الإيغال في تفاصيل ما قبل الثورة، يمكن القول إن الطفل الذي نشأ في مدرسة تحمل على جدرانها شعارات مثل: "يسقط الأسد" أو "حرية للأبد غصب عنك يا أسد"، ومعلمين يشرجون له ظلم النظام وقسوته، وتشريد أبناء وطنه، وتدمير أسرته وتهجيرهم، وتركيزه على فكرة أنهم ضحايا استبداد وظلم نظام قاتل ومجرم.

هذا الطفل لا يشابه الطفل الذي نشأ في مدرسة تحمل شعارات مثل: "الأسد أو نحرق البلد" أو "بالروح بالدم نفديك يا بشار"، ومعلمين يعلّمونه أن النظام هو صمام الأمان وحامي الوطن، وأن المعارضة هم عملاء يريدون تدمير البلد، وأن الجيش هو زهرة الأمل والحرية.

كما كان يُلقِّن المعلمون والمدرسون في مناطق النظام أبناءهم أن "صمام الأمان" لهذا البلد، و"حامي الحمى"، و"مانع الانفلات الإسرائيلي" في الداخل السوري هو بشار الأسد ومن معه من "حماة الوطن."

وكانوا يُرسِّخون في أذهان الطلاب أن من يزعمون الثورة أو المعارضة ما هم إلا عملاء لإسرائيل، وأنهم يسعون لتدمير البلد. بل إن القنابل والبراميل المتفجرة التي يلقيها الجيش عليهم، تُقدَّم في وعيهم على أنها "أزهار من الحرية والأمل"، لا أدوات دمار وخراب.

لقد مارست الثورة السورية خلال أربعة عشر عامًا محطات تربوية مكثفة على أجيالها الناشئة، نشأوا فيها على قهر الظلم ومقاومة الاستبداد، وهم لا يشبهون إطلاقًا جيلًا تربى لأكثر من ٥٤ سنة على مفاهيم الخضوع والطاعة العمياء لحزب البعث، وتشرّب خطاب "شبيبة البعث" و"طلائع البعث"، لا سيما خلال السنوات الأخيرة التي كانت حافلة بحملات الترهيب وبث الكراهية والتخويف.

جيل الثورة تشرب معاني الحرية والكرامة، ونما لديه شعور عميق بضرورة محاسبة كل من كان شريكًا في الظلم والتهجير والمعاناة. الطفل الذي عاش في الخيام الممزقة، ورأى بأم عينه والده ووالدته ومعلمه وجيرانه وهم يقاومون برد الشتاء وحر الصيف بوسائل بدائية، ويواجهون الجوع والحصار، ثم يشاهد الأشلاء المتناثرة من حوله، لا يمكن أن يحمل مشاعر الحياد أو التسامح مع من شارك في إيذائه، أو التزم الصمت على ألمه.

أما جيل النظام، فقد تربى على أن الخضوع للظالم هو عين الحكمة، وأن الاستبداد ضرورة لحفظ أمن الدولة واستقرارها، لأنه "إن لم يكن الأسد، فسيُحرَق البلد". وتم غرس فكرة أن مقاومة الاستبداد خيانة وطنية، وأن السكوت عن الظلم نوع من الإيمان والانضباط، في مقابل ما يُصوَّر لهم على أنه "وساوس شيطانية" تريد زعزعة "نعمة الأمان" التي وفرها الأسد.

وكان هذا الجيل يرى في مدارسهم المدمرة صورة "القائد الرمز" تزيّن كل زاوية، ويُمنَع المساس بها كما لو أنها من المقدسات، ويُربّى على تمجيده كصورة بطولية لا تقبل النقد ولا المساءلة.

من هنا، نشأ جيلان مختلفان في مواجهة الحياة، وكل جيل تربي على رؤية مختلفة تماماً للواقع.

- **تغير المفاهيم:**

أ- الحرية: المفهوم المغيَّب ومركز الفارق الجوهري

تُعدّ الحرية من أبرز المفاهيم التي طُمست وشُوِّهت في وعي أبناء المجتمع السوري، وهي من المفاهيم التي شكّلت دافعًا أساسيًّا لانطلاق الثورة السورية. فالحرية حقٌّ إنسانيٌّ أصيل، كفلته الشرائع السماوية، وأقرّته القوانين والأعراف الدولية. غير أن هذا الحقّ كان من أكثر ما أثار النظام السوري البائد، إذ كانت كلمة "حرية" كفيلة بأن تهزّ عرشه وتفضح استبداده.

وعندما تمايز المجتمع السوري إلى مجتمعين: مجتمع الثورة ومجتمع النظام، كانت الحرية هي المفصل الأوضح بينهما؛ ففي مجتمع الثورة أصبحت الحرية عنوانًا للكرامة، وسبيلاً للفداء، ومجالاً للتربية والتنشئة، حيث يُربّى الأبناء على معانيها، ويشبّ عليها النشء، ويُسطّرها المجاهدون في خنادقهم بدمائهم، رغم تفاوت موازين القوى. لقد نشأ هذا الجيل على أن الحرية لا تُمنَح بل تُنتَزع، وأنه لا يمكن لقوة أن توقف هدير من يطلبها. فكانت تُروى في الخيام قصص البطولة والتضحية، وما بذله الآباء والأمهات والإخوة في سبيلها، حتى أوشك الأمل أن يتلاشى من شدة الثمن، لولا بوادر النصر التي كانت تلوح في الأفق، فتنعش فيهم اليقين بأن للحرية فجرًا آتيًا.

وفي المقابل، هل يُعقل أن يُشبه هذا الجيل الحر طفلًا أو شابًا أو رجلًا أو امرأة نشأوا في بيئة تُقدّم الحرية على أنها "فجور" أو "انفلات"، وتُصوَّر على أنها مصطلح مستورد يهدد استقرار الوطن، وأنها مرادف للفوضى أو الخيانة؟

لقد تربّى أبناء النظام على أن الولاء للأسد هو الضامن الوحيد للأمان، وأن كل مَن يرفع شعار الحرية هو عميل، متمرد، يستحق النبذ أو القمع. حتى أصبح مجرد التلفظ بكلمة "حرية" جريمة تستوجب الاعتقال أو الإذلال، كما كان يردد زبانية النظام في وجه الطلاب الثائرين ساخرين: "بدكن حريي؟"!

لذا، من الطبيعي أن نجد فرقًا عميقًا بين شابين:

أحـدهما يـرى أن الحريـة حـقٌّ تُبـذل في سـبيله الأرواح، وهي قـدر الإنسـان ومصـيره، وآخر يرى أن الأسد هو من يلازم أنفاسه، وأن النظام وحده هو مصدر الشرعية والأمان، لا يعلو صوت على صوته، ولا حرية إلا بإذنه.

ب. مفهوم العلاقات الاجتماعية

إحدى أبرز التحولات المفاهيمية التي تفرّق بين مجتمع الثورة ومجتمع النظام تتجلى في **مفهوم العلاقات الاجتماعية**، والذي تشكّل عند كل طرف تحت تأثير منظومته السياسية والبيئية.

في **مجتمع الثورة**، تشكّلت العلاقات على أسس التضامن والتعاون والمساندة، حيث نما جيل الثورة في بيئات قاسية –كالمخيمات أو المدن المحاصرة– مما عزز فيهم روح التكافل والمسؤولية الجماعية، وكانت المِحن الكبرى –كزلزال شباط 2023 أو حملات النزوح المتكررة– محطات لإبراز هذا النموذج، حيث ظهرت مبادرات تطوعية، وجهود شبابية، وروح عالية من التراحم الاجتماعي.

لقد أصبح العمل التطوعي والوقوف مع المنكوب والمحتاج من المعايير الأخلاقية التي تُحترم في هذا المجتمع، وانعكس ذلك في الانتشار الواسع للأنشطة الخدمية والإغاثية، والمؤسسات المحلية، والإعلام المجتمعي الذي يُسلّط الضوء على المظلومين وينقل صوتهم، مما ساعد على تكوين بيئة مفعمة بالأمل، والتآزر، والثقة، رغم محدودية الإمكانيات.

على النقيض، نشأ جيل النظام في ظل بيئة أمنية صارمة، غرست في الأفراد **الشك والخوف من الآخر**، حتى داخل الأسرة الواحدة، فترسخ مبدأ "الحيطان لها آذان" كأداة لضبط المجتمع عبر تفكيك العلاقات وتحويل الأفراد إلى أدوات رقابة على بعضهم. فكل تعبير عن تضامن أو مساعدة خارج الإطار الرسمي كان يُنظر إليه بريبة، وأي موقف إنساني قد يُفسر كتمرد، مما أنتج مجتمعات فردانية، باردة، خائفة، عاجزة عن التفاعل الطبيعي.

نتج عن هذا التباين بيئتان متناقضتان: إحداهما تحررت بالعطاء، والأخرى قُيدت بالخوف، وهو ما يجعل الفجوة في مفهوم العلاقات من أبرز العوائق النفسية في طريق الدمج المجتمعي.

ح. مفهوم التدين

يُعدّ مفهوم التدين من أهم المفاهيم التي نالها التشويه والتحريف في مجتمع النظام، بينما نال في مجتمع الثورة قدراً من التقدير والاحترام، حتى أصبح أحد أبرز عوامل التماسك النفسي والاجتماعي، وسبباً مباشراً في تعزيز الصبر وتحمل المشاق.

ففي بيئة الثورة، غدا الدين هو الدافع الأسمى لتعزيز الأمل في النفوس، ومصدر قوة معنوية تُحيي فيها الإنسان وتوجهه نحو الغايات الكبرى، بل إن الإنسان فيها يعيش من أجل إقامة الدين ونصرته. فالدين في هذه البيئة لا يُختزل في الشعائر، بل يتجاوزها ليكون محركاً حقيقياً للسلوك، ومصدراً للأخلاق والقيم، وباعثاً على البذل والتضحية، إذ إن الإيمان بالآخرة وما وعد الله به الصابرين هو ما يهوّن عليهم صعوبة المحن وقسوة الحياة في الشتات والمخيمات. وقد شكّل هذا التدين عماداً نفسياً لحياة كثير من الناس، فصاروا يرون فيه المعين الذي لا ينضب، والركن الثابت الذي يستندون إليه في لحظات الضعف، مما جعله أساساً في تقوية الروابط الاجتماعية، حيث يُنظر إلى المتدين على أنه موضع ثقة، ومرجع للأمان، ومصدر للاطمئنان ضمن المجتمع.

أما في مجتمع النظام، فقد تم تشويه هذا المفهوم، وإلباسه ثوب التوجس والخوف، تحت وطأة قبضة أمنية غاشمة. فأضحى كل من يُظهر مظاهر التدين موضع شبهة، وكل صاحب لحية أو مداوم على الصلاة أو قارئ لكتاب ديني هدفاً مباشراً للمخبرين وزبانية النظام. بل إن المساجد نفسها تحولت إلى بؤر مراقبة، يكتب فيها "الفسافيس" تقاريرهم عن المصلين، ويصنفونهم وفق ولائهم المزعوم. وأصبح المتدين يُعتبر مشروع "إرهابي"، حتى داخل أسرته، إذ يخشى الأب والأم على ولدهما من الصلاة أو حضور درس ديني، لأن هذا المسار ينذر حسب تصورهم . باعتقاله أو اختفائه في أقبية النظام.

وقد أدى هذا إلى ترسيخ نظرة عدائية إلى الدين نفسه، لا إلى ممارساته فقط، بل إلى كل ما يمت إليه بصلة، ما لم يكن هذا التدين خاضعًا لهوى النظام ومنسجمًا مع أجندته الفاسدة، أو موجّهًا نحو تأييد قوى طائفية أو تغذية أفكار منحرفة تفرغ الدين من مضمونه الحقيقي، وتبرر الظلم، وتمجد الطغيان، وتدعو إلى طاعة الحاكم الظالم باسم القدر أو "حفظ الأمن."

هكذا نشأ فرق واضح وجذري في نظرة المجتمعين إلى الدين:

ففي حين صار الدين في بيئة الثورة منبع أمل ودافعًا للتحرر والبذل، أصبح في بيئة النظام مصدر خوف واتهام، ومحلاً للريبة والملاحقة.

بينما المتدين في مجتمع الثورة محل احترام وتقدير، نراه في مجتمع النظام متهماً حتى يثبت العكس، بل حتى إذا أثبت "الولاء السياسي."

هذا التشويه الممنهج أسهم في خلق قطيعة فكرية وروحية بين المجتمعين، وجعل من إعادة تعريف الدين والتدين في الخطاب العام ضرورة عاجلة لردم الفجوة وتحرير الوعي من ميراث القمع والخوف.

- **التربية الأسرية: أثرها في بناء الشخصية المجتمعية**

تُعدّ الأسرة اللبنة الأولى في تشكيل شخصية الإنسان، وهي الحاضنة التربوية الأولى التي يتلقى فيها الطفل أولى مبادئ السلوك والقيم، كما أنها المؤثر الأبرز في ترسيخ الهوية الفردية والجماعية. فصلاح الأسرة غالبًا ما ينعكس على صلاح الأبناء، وفسادها يؤدي، في الغالب، إلى انحرافهم وخللهم في التعاطي مع المجتمع.

ويُعدُّ اختلاف نمط التربية الأسرية أحد أبرز أسباب التباين المجتمعي بين بيئتي الثورة والنظام في سوريا. فبينما نشأ أطفال الثورة في بيئة مشحونة بالمعاناة والتحدي، برز فيها الدين كدافع ومحفز للمقاومة والصبر، نما أطفال النظام في بيئة تُغذّي الخضوع والرضا بالأمر الواقع، وتُربّي على الحذر والشك والانكفاء على الذات.

في مناطق الثورة، كان للأسرة دور بارز في زرع مفاهيم الشجاعة، والاعتزاز بالهوية، ورفض الظلم، والتشبث بالدين كمرجعية سلوكية ونضالية. فالطفل الذي رأى والده أو معلمه يُعتقل أو يُقتل، أو شُرّد مع أسرته من بيته، ونشأ في خيمة تمزقها الرياح، كان يسمع والديه يربطون معاناتهم بنصرة الحق، ويمنّونه بالعودة والتحرير، فتترسخ في وجدانه أن الثورة قضية، وأن التضحية قدر، وأن الكرامة أثمن من الحياة.

وهكذا كان صدى تلك الأناشيد التي تغنى بها الأطفال وهم يُهجّرون، كـ"سوف نبقى هنا"، ليس مجرد كلمات، بل تعبيرًا عن إيمان راسخ بأن الحياة الحرة لا تُمنح، بل تُنتزع. وصار مفهوما أن من لا يحمل هذا الإيمان هو الغريب عنهم، والمخالف لمجتمعهم.

ومن ثمار هذه التربية أيضًا، بروز قيم المروءة والتكافل، كما ظهر جليًا في الكوارث الكبرى مثل زلزال شباط 2023م، حيث تحولت المناطق المحررة إلى ورش تطوع مستمرة، لم يبقَ فيها بيت إلا وشارك في إغاثة الجار أو إيواء المنكوب، ما دلّ على مدى عمق التلاحم الاجتماعي الذي غرسته الأسرة في أبناء الثورة.

وعلى صعيد آخر، كان للقرآن الكريم حضور بالغ في الأسرة الثورية، حيث أضحى حفظه وتدبره أحد ملامح الفخر المجتمعي. فتجد في كل حيٍّ حافظًا، وفي كل بيت حافظة، خصوصًا بين النساء، وهو ما ساهم في ترسيخ الهوية الإسلامية، وبناء جيل يتكئ في فكره وسلوكه على مرجعية ربانية واضحة.

في المقابل، نجد في مناطق النظام صورة مختلفة تمامًا، حيث أفرزت عقود من الاستبداد تربية قائمة على الخوف والانغلاق. فالأسرة هناك، وبفعل القمع اليومي والرقابة الأمنية، صارت تُربّي أبناءها على الحذر من كل من حولهم، حتى من أقرب الأقربين. فالقول الشائع "الحيطان إلها آذان" لم يكن مجرد مثل، بل سلوكًا متبعًا، ترجم إلى كبت حرية التعبير، وانعدام الثقة بالآخر، وغلبة الفردانية في العلاقات.

وفي مجتمعٍ كهذا، يصبح التدين مصدر قلق وخطر، لا قيمة روحية وأخلاقية. فكل من يُظهر التزامًا دينيًا -كالصلاة، أو إطلاق اللحية، أو ارتداء الحجاب الشرعي- يصبح موضع اشتباه أمني. بل وصل الحال ببعض الآباء والأمهات إلى تحذير أبنائهم من الصلاة أو قراءة الكتب الدينية خوفًا من اعتقالهم، وكأن مظاهر التدين دليل على "الانتماء لمشروع إرهابي"، ما جعل الدين نفسه في وعي أبنائهم مشروع خطر، لا مصدر أمان.

إن الفرق بين البيئتين يظهر في كل تفاصيل التربية الأسرية:

- بين أبٍ يُربّي أبناءه على الجرأة والثقة والتفاعل مع محيطه، وآخر يُعلّمهم الحذر والشك والتخفي.
- بين فتاةٍ لم تر في حياتها امرأة كاشفة الرأس، وأخرى تعتبر خلع الحجاب ضرورة أمنية.
- بين مجتمعٍ يرى في المتدين قدوة ومصدر أمان، وآخر يراه مشروع سجين أو متمرد.

وهكذا كانت الأسرة، لا المدرسة وحدها، مصنعًا للفكر والانتماء، وركيزة في تعزيز الفجوة بين المجتمعين، ومن هنا تظهر الحاجة الملحّة لبناء منظومة تربوية أسرية جديدة، تُعالج ما أفسده الاستبداد، وتستثمر ما أنضجته الثورة من قيم.

- **البيئة الاجتماعية والثقافية:**

- **دور الإعلام والدعاية في تكريس الفجوة بين مجتمع النظام ومجتمع الثورة**

لا يُمكن الحديث عن الانقسام النفسي- والاجتماعي العميق بين مجتمع النظام ومجتمع الثورة دون التوقف عند دور الإعلام والدعاية بوصفهما من أبرز أدوات الصراع وأعمقها أثراً. إذ لا تقتصر- وظيفة الإعلام على نقل الأخبار أو الأحداث، بل يتعداها ليكون فاعلًا مركزيًّا في صناعة الصورة الذهنية وترسيخ القناعات الفردية والجمعية. وقد لعب إعلام النظام السوري، منذ الأيام الأولى للثورة، دورًا خطيرًا في تشويه صورة المجتمع الثوري، وتعميق الكراهية والريبة بين فئتين من أبناء الوطن الواحد.

أولاً: تشويه ممنهج لصورة الثورة ومجتمعها

أدار النظام البائد ماكينة إعلامية ضخمة، استخدم فيها كل أدواته الرسمية وغير الرسمية لتثبيت رواية مفادها أن الثورة ليست سوى "مؤامرة دولية" وأداة في يد "الإرهاب العالمي" الممول من الخارج. وقد عمد رأس النظام نفسه إلى وصف مناطق الثورة بـ"البؤر الإرهابية" وعدّ كل من دعمها أو آوى ثائرًا "شريكًا في الإرهاب". وهكذا، أصبح توصيف "الإرهابيين" يشمل ليس فقط من رفع السلاح، بل كل من سكن في منطقة خرجت عن سيطرة النظام.

لقد بلغ هذا التشويه من العمق حدًّا جعل بعض كبار السن ممن لم يغادروا مناطق النظام يصرّحون عند لقائهم بالمهجرين: "كنا نظن أن مناطقكم مليئة بالفوضى والسلب والنهب... لم نعرف أنكم بشر- مثلنا!"، وهو ما يكشف أثر التضليل الإعلامي الممنهج في تشكيل الإدراك الجمعي، وتبرير القمع والتنكيل، بل والسكوت عن الجرائم بحق المدنيين في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام.

ثانيًا: استغلال البعد الأخلاقي والديني

لم يكتفِ إعلام النظام برسم صورة أمنية مشوهة للثوار، بل تعدى ذلك إلى ضرب البعد الأخلاقي والديني لحاضنتهم الشعبية. فأُشيعت روايات مفبركة عن "جهاد النكاح"، وجرى تصوير مناطق الثورة بوصفها فضاءً للفوضى والانفلات الأخلاقي والديني، في مقابل الإيحاء بأن مناطق النظام هي الملاذ الآمن، وأن جيشه هو "حامي الحمى وناصر المظلومين"، رغم ما ارتكبه من مجازر وجرائم موثقة.

هذا التشويه الأخلاقي لم يكن اعتباطيًّا، بل استُخدم لإقناع الحاضنة الموالية بأن الثورة "تهدد قيم المجتمع"، مما عزّز القناعة لديهم بضرورة الوقوف إلى جانب السلطة القائمة ولو على حساب الدم والحق والعدالة.

ثالثًا: ضعف الإعلام الثوري وتقصيره البنيوي

في المقابل، لم تكن لدى الثورة منذ بدايتها بنية إعلامية قادرة على مواجهة هذا الزخم، سواء من حيث الاحترافية أو الانتشار أو التخصص. فقد اقتصرت جهود الإعلام الثوري على مبادرات فردية أو جماعية صغيرة، يقودها هواة أو نشطاء ميدانيون، يفتقرون غالبًا إلى الأدوات المهنية والدعم المؤسساتي.

كما أن تركيز هذا الإعلام، تحت ضغط الحاجة، انصبّ على تصوير المأساة والمعاناة، لا على إبراز جوانب القوة أو القيم الإنسانية في مجتمع الثورة، مثل التضامن، والتطوع، والصمود. وازدادت الفجوة مع اعتماد كثير من الإعلاميين المرتبطين بالمنظمات على تسويق "النكبة" بوصفها مادة دعائية لجذب التمويل، مما رسّخ في وعي الخارج -وربما الداخل أيضًا- صورةً مشوهة للمناطق المحررة على أنها مناطق فقر وجوع وعجز.

رابعًا: خطاب إعلامي عاجز عن مخاطبة الحاضنة الأخرى

لقد عجز الإعلام الثوري عن الوصول إلى مجتمع النظام برسائل قادرة على تفكيك سردية الخوف والتشويه التي يزرعها النظام. فلم تُوجَّه حملات جدّية تسعى إلى بناء جسر تواصل أو حتى مجرد فتح نافذة لفهم الطرف الآخر. في حين نجح إعلام النظام، بدهائه وخبرته، في إقناع الناس أن الثورة خطر وجودي، وأنه لا رجعة للمهجّرين، وأن الأسد باقٍ "إلى الأبد."

خامسًا: أثر الإعلام على إعادة بناء المجتمع

لقد ساهم هذا الواقع الإعلامي المنقسم في ترسيخ القطيعة النفسية والاجتماعية بين الطرفين، وزرع مشاعر الكراهية المتبادلة، والتوجس، وانعدام الثقة. بل حتى في صفوف مؤيدي الثورة، صار بعضهم يرى أن صمت مجتمع النظام، خصوصًا "السني" منه، عن المجازر، يُعد خيانة كبرى ساهمت في إطالة أمد الثورة وتكاليفها.

فالإعلام لم يكن مجرد ناقلٍ للأحداث، بل فاعلاً أساسياً في صياغة العداوة وتثبيتها، ومساهمًا في تغذية النزعة الانتقامية لدى الطرفين، مما يجعل من معالجته أولوية في أي مسار مصالحة أو دمج مجتمعي لاحق.

خلاصة:

إن الإعلام، حين ينفصل عن الحقيقة والعدل، يتحول إلى أداة قمع وتشويه لا تقلّ خطرًا عن القصف أو الاعتقال. وفي الحالة السورية، كان الإعلام أحد أعمدة التفرقة والخصومة،

ووسـيلة فعالـة لتكـريس خطـاب الكراهيـة، وتثبيـت سرديـة الزيـف، وإدامـة العـداء بـين مجتمعين مزقتهما الحرب.

لذلك، فإن معالجة الفجوة المجتمعية بين مجتمع الثورة ومجتمع النظام لا يمكن أن تنجح دون مراجعة عميقة للدور الإعلامي، والانتقال من إعلام الانقسام إلى إعلام المصالحة، ومن صناعة الخصومة إلى بناء الجسور.

المطلب الثالث: حلول نفسية واجتماعية لجسر الهوة بين المجتمعين

مدخل:

لقد أثبتت الوقائع أن الانقسام النفسي والثقافي بين مجتمع الثورة ومجتمع النظام لا يمكن علاجه بمجرد دعوات فردية أو مبادرات عاطفية، بل يستدعي تدخلًا شاملًا من الدولة الجديدة عبر خطط مدروسة، وسياسات تربوية، وإعلامية، واقتصادية، تعيد بناء "النسيج المجتمعي" على أسس من العدالة، والكرامة، والتكافل، والهوية المشتركة.

ومن الواجب أن تستند هذه السياسات إلى مرجعية إسلامية واضحة، لأن جمهور المجتمع السوري . في غالبيته . يرى في الإسلام مرجعًا أخلاقيًا وفكريًا. وعليه، فإننا نقترح هذه الحلول التي يمكن أن تتبناها الوزارات والهيئات ضمن مشروع "**ردم الهوة وبناء التماسك الوطني**."

أولاً: وزارة التربية والتعليم – التربية على التوحيد والتكافل

1- مراجعة شاملة للمناهج:

تطوير المناهج التربوية على ضوء مقاصد الشريعة الإسلامية بما يعزز قيم العدل، والحرية، والكرامة، والأخوة.

تضمين سير الصحابة والتابعين الذين جمعوا بين التعدد والانتماء الواحد، كالنموذج النبوي بين المهاجرين والأنصار.

تصحيح المفاهيم المغلوطة حول الطاعة والخضوع، وتقديم مفهوم الطاعة في الإسلام كطاعة بالمعروف، لا استسلام للظلم.

2- برامج دعم نفسي تربوي:

إطلاق برامج وطنية في المدارس لدعم الأطفال المتأثرين بالحرب، وتزويدهم بمهارات الحوار والتسامح.

تدريب المعلمين على التعامل مع آثار الصدمة لدى الطلاب، وإدماج التربية النفسية الدينية في الحصص الأسبوعية.

ثانيًا: وزارة الإعلام – نحو خطاب جامع يُرمم لا يُمزق

- **خطاب إعلامي برؤية شرعية ووطنية:**

إطلاق حملة إعلامية وطنية بعنوان: "سوريا تجمعنا"، تدمج بين المفاهيم الإسلامية والهوية الجامعة.

إنتاج مسلسلات وأفلام وثائقية تحكي قصصًا واقعية عن المعاناة من الطرفين، وتؤكد وحدة المصير.

- **دعم الإعلام المجتمعي:**

تأسيس منصات إعلامية مستقلة تنقل واقع المجتمعين بإنصاف، وتعزز الحوار الوطني.

إلغاء سياسة التعميم الإعلامي، والتمييز بين من حمل السلاح دفاعًا عن كرامته وبين من تورط في الفساد.

ثالثًا: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية – وحدة الإيمان توحد المجتمع

- **مشروع "المصالحة من المنبر:"**

خطة دعوية متكاملة لتوحيد الخطاب الشرعي حول المصالحة والتعايش.

تنظيم ملتقيات العلماء من كافة المناطق السورية لإصدار بيان موحد حول أهمية الوحدة.

- برامج شرعية للتقارب الاجتماعي:

تنظيم دروس وحلقات علمية بين أهالي المجتمعين، تتناول العفو، وتحرير النفس من الأحقاد، وأهمية الوطن الجامع.

رابعًا: وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل – مأسسة العمل التطوعي والمجتمعي

- **دعم المبادرات المجتمعية:**

تشجيع مبادرات المصالحة المجتمعية في الأحياء والمخيمات، ومنحها تمويلًا وتدريبًا.

إشراك النازحين واللاجئين في مشاريع جماعية، لبناء الثقة بينهم وبين المجتمع المضيف.

- **تعزيز ثقافة التكافل:**

إطلاق حملات وطنية بعنوان: "أنت أخي"، لتعزيز الروابط المجتمعية من خلال مشاريع مشتركة.

خامسًا: وزارة الثقافة والتعليم العالي – إعادة إنتاج المفاهيم

- **تطوير المناهج الجامعية:**

إدراج مقررات تعالج مفاهيم "المواطنة المتساوية"، و"العدالة الانتقالية"، و"الهوية الجامعة."

- **دعم الأبحاث:**

تقديم منح بحثية لأطروحات ماجستير ودكتوراه تتناول موضوع ردم الفجوة المجتمعية.

سادسًا: مقترحات تكاملية

- **المجلس السوري لوحدة القيم:**

هيئة وطنية دينية علمية تضع السياسات العامة لخطاب التوحيد المجتمعي.

- **مشروع "أطفالنا جسورنا:"**

تبادل الرحلات والأنشطة الطلابية بين مناطق الثورة ومناطق النظام لكسر الحواجز المبكرة.

- **مسابقة وطنية: "اكتب قصتك من أجل سوريا الجديدة"**

تشجع أبناء المجتمعين على سرد معاناتهم وأحلامهم، وبناء سردية موحدة للمستقبل.

خاتمة

إن الهوة النفسية والاجتماعية في سوريا لا تُردم إلا عبر مشروع إسلامي وطني علمي، تتبناه مؤسسات الدولة، ويخاطب عقل الإنسان وروحه، ماضيه ومستقبله، ألمه وأمله. ومهما بدا الشرخ عميقًا، فإن التأسيس على منهج النبوة والعدل والمواطنة الصادقة هو السبيل إلى وطنٍ يجمع أبناءه لا يفرقهم، ويصون كرامتهم لا يهدرها.

المطلب الرابع: التجارب الدولية في رأب الانقسام المجتمعي

يُعتبر رأب الانقسام المجتمعي من أهم التحديات التي تواجه الدول التي عاشت صراعات داخلية أو حروب أهلية. ومن التجارب العالمية الناجحة التي يمكن استلهامها في الحالة السورية:

أولاً: جنوب إفريقيا (نهاية نظام الفصل العنصري)

بعد سقوط نظام الفصل العنصري، أطلقت حكومة نيلسون مانديلا لجنة الحقيقة والمصالحة (Truth and Reconciliation Commission) التي فتحت الباب أمام الضحايا والمعتدين لسرد قصصهم ضمن بيئة من الحوار والمغفرة. ركزت هذه اللجنة على:

- المصارحة والاعتراف بالجرائم.
- العدالة التصالحية بدل الانتقام.
- بناء رواية وطنية مشتركة.

ثانياً: رواندا (بعد الإبادة الجماعية 1994)

عقب الإبادة الجماعية في رواندا، تم اعتماد محاكم "Gacaca" الشعبية التي شارك فيها المجتمع في تحقيق العدالة بشكل سريع، مع التركيز على:

- إشراك المجتمع في العدالة.
- تشجيع ثقافة العفو والتسامح.
- التركيز على إعادة دمج الضحايا والمجرمين في المجتمع.

ثالثاً: كولومبيا (اتفاق السلام مع قوات(FARC)

بعد عقدين من الصراع، توصلت الحكومة الكولومبية إلى اتفاق سلام مع قوات FARC تضمن:

- عفو مشروط للمقاتلين.
- برامج لإعادة الإدماج في المجتمع.

- تعويضات للضحايا.
- إنشاء منصات للحقيقة والاعتراف.

التوصيات النهائية

إن بناء سوريا المستقبل لا يقتصر على إعادة الإعمار والبنية التحتية، بل يتطلب:

- **إعادة بناء الإنسان السوري نفسيًّا واجتماعيًّا** عبر برامج دعم نفسي- ومصالحة مجتمعية.
- **إزالة آثار العنف والتفكك** من خلال برامج تعليمية وثقافية تربط الجميع بهوية وطنية جامعة.
- **إقامة آليات للعدالة الانتقالية** توازن بين حق الضحايا وحق المجتمع في السلام.
- **تعزيز الحوار المجتمعي والتقارب** بين أبناء الثورة وحاضنة النظام عبر مشاريع مشتركة.
- **دعم الثقافة والفنون التوحيدية** لإعادة صياغة رواية الوطن بشكل يشمل الجميع.
- **تبني رؤية وطنية شجاعة** تعترف بالشقوق وتسعى بجدية لرأبها.

فكما مزّقت الحرب جغرافيا سوريا، فإنها مزّقت أيضًا أرواح أبنائها، ولا بد من شفاء هذه الجراح النفسية والاجتماعية لبناء وطن يعيش فيه الجميع بسلام ومساواة.

خاتمة تحليلية موسعة

إن بناء سوريا المستقبل لا يقتصر على إعادة الإعمار والبنية التحتية، بل يتطلب قبل ذلك إعادة بناء الإنسان السوري نفسيًّا واجتماعيًّا، وإزالة آثار العنف والتفكك التي خلّفتها الحرب.

إن التفاوت بين أبناء الثورة وحاضنة النظام ليس تفصيلًا عابرًا، بل هو خطر كامن على الوحدة الوطنية، ويجب التعامل معه على مراحل:

المرحلة الأولى: الطوارئ

- التدخل النفسي العاجل لضحايا الصدمة.
- حملات إعلامية لوقف خطاب الكراهية.
- تأمين بيئة قانونية تحمي حرية الرأي وتُجرِّم التحريض.

المرحلة الثانية: الانتقال

- إعادة صياغة المناهج التربوية على أسس وطنية عادلة.
- تعزيز الثقافة الوطنية الجامعة غير المؤدلجة.
- إطلاق مبادرات مجتمعية للتقارب والحوار والانفتاح بين مكونات المجتمع.

المرحلة الثالثة: الاستدامة

- استحداث وزارة أو هيئة وطنية للمصالحة المجتمعية.
- توثيق الذاكرة الجماعية لجميع الضحايا من جميع الأطراف.
- دعم الإنتاج الفني والثقافي الذي يعكس رواية سورية جامعة عن المأساة والانتصار.

إن تحقيق هذا الهدف يتطلب رؤية وطنية شجاعة، تقرّ بحجم الشرخ وتعمل بإخلاص لرأبه. فكما أن الحرب مزّقت الجغرافيا، فإنها مزّقت أيضًا الأرواح، ولا بد من شفاء الأرواح إذا أردنا بناء وطنٍ يعيش فيه أبناؤه بسلام، لا كغالب ومغلوب، بل كمواطنين متساوين في الحقوق والكرامة.

والله من وراء القصد.

إعداد: سليمان السلامة الحمد